الحج
السفر من الخلق إلى الحق إلى العشق

بسم الله الرحمن الرحيم . أسلمت لرب العالمين .

هذا كتاب يبحث في مسألة الطقوس الدينية بوجه عام ، و الحجّ الذي يقرّه مذهب الناس في الإسلام بوجه خاص، و يبيّن ماهية لسان النبوات و أعمالهم، و مسائل متعلقة بالطقوس و أهميتها ، ثم نختم البحث بباب ينظر في سورة الحج المباركة، إذ كل سورة تدور حول محور هو اسم هذه السورة ، كما تدور الكواكب حول الشمس، اشتركنا في جزء من هذا المشروع الماثل أمامك مع الأخ الكريم أحمد ، و نرجو أن يكون قد بيّنا ما ينفع النا. " و ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب".

-،-

(الباب الأول ، العوالم الأربعة)

يقول الله "سنريهم ءآياتنا في الآفاق . و في أنفسهم . حتى يتبين لهم أنه الحق . أولم يكف بربك أنه على عل كل شئ شهيد "

العالم الأول هو هوية النفس المتعالية " هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن " ، و هو الوجود المطلق الواحد الأحد المعطي للخير.

وَ العالم الثاني هو عالم الملكوت ، محل النور التام ، و هو كل الكمالات التي يمكن أن تتحقق في الخلق، و هو محل سكن الروح و الملائكة و جبريل و ميكال ، و هو عالم الحق .

وَ العالم الثالث هو عالم الأنفس ، الأنفس الإنسانية ، و هي أصلا من عالم الملكوت و التي نزلت لتحقق الغاية المقدسة.

وَ العالم الرابع هو عالم الآفاق ، عالم الأجسام و الصور الذي يُرى بهذه العين التي تقرأ بها الكتاب، و هو محل الظلمة التامة ، و كل نور فيه هو من الملكوت لا غير.

و الإنسان أربعة أمور : قلب و عقل و نفس و جسم .

القلب مرآة النفس المتعالية و هو من ذاك العالم ،

وَ العقل ساكن الملكوت و هو الذي يحيا فيه كما تحيا الأجسام في عالم الآفاق ،

وَ النفس هي كالبذرة التي نزلت لتكمّل و تصبح شجرة طيبة مباركة، و تتشكل بحسب القلب و العقل و الجسم و ما يفعل الإنسان بهذه الثلاثة أمور ، فهي محل تأثر.

وَ الجسم هو من عالم الآفاق و ليس له إلا هذا العالم.

و الملكوت محل النور التام ، و الآفاق محل الظلمة التامة ، و الهوية الإلهية فوق النور و الظلمة ، و النفس نزلت من الملكوت إلى عالم الآفاق حتى تجعل كل نور الملكوت يشرق على عالم الآفاق، حتى يتّصل عالم الملكوت و عالم الآفاق، و ينجمع الشمس و القمر، و هذه هي القيامة.

و كمال الإنسان بالسعي لإكمال الأمور الأربعة التي هي هو ، و النفس هي محل حصور هذا الكمال، و المؤثرات ثلاثة ، القلب بذكر النفس المتعالية ، و العقل بالتأمل في خلق الله و كتابه و التفكير بوجه عام، و الجسم بالرياضة

و حسن التغذية، ثم يحبة من فيهم من الكمالات و الزواج ممن فيه الكمالات كذلك، و ليس هناك في العالين كمال غير هذا و لا أحسن منه ، و من يعرف فليتقدم مشكوراً.
فهذه هي العوالم الأربعة من حيث التدرج النزولي : النفس المتعالية ، و الملكوت و الآفاق و الأنفس ، و هذا معنى "بسم الله الرحمن الرحيم" . "بسم" إشارة إلى النفس المتعالية، و "الله" اسم الملكوت، و "الرحمن" الآفاق، و "الرحيم" الأنفس.

و إنما تاه الناس و خلطوا لما جعلوا اسم "الله" معبّرا عن الهوية العلية، و جعلوا "ربك" دائما تعبّر عن الهوية العلية، فحاروا في القرءآن، و جاؤوا بأمور ما أنزل الله بها من سلطان، فيقرأون "إذ قال ربك للملائكة . إني جاعل " فيأتي أهل اليقين فيقولوا ، إن الرب هو الوجود المطلق ، فلا يمكن أن يكون في شئ دون شئ ، و لا أن يكون فقط متكلماً ، و هل السامع غيره، "هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن" و يقرأون "و جاء ربك" فيأتي مُحرّفو الكلم فيقولون "و جاء ربك" أي جاء أمر ربك، ويلك إن كان يريد ذلك لقاله، و هكذا لأنهم بحق لم يتصوروا بأن يأتي الرب يحمله ثمانية، كيف و هو حامل كل شئ، فيغفلون عن القرءآن، و يتغافلون لخلطهم بين الهوية و بين الملكوت و الروح الذي هو مظهر الله و إمام الملكوت إن شئت.

و عالم الآفاق خلقه الخالق باسمه "الرحمن" . و لذلك تجد كل سورة الرحمن تعبّر عن صور من عالم الأجسام، كالإنسان و الشمس و القمر و النجم و الشجر و البحر و ما شابه.

و عالم الأنفس باسمه "الرحيم" . و لذلك إذا ذكر النفس يختم باسم الرحيم كقوله "لا تقتلوا أنفسكم إنه كان بكم رحيما" أو لما ذكر الأمور النفسية ختم بقوله "و كان بالمؤمنين رحيما".

هذا هو مفتاح خزائن الله ، و لذلك كانت "بسم الله الرحمن الرحيم" في أوّل كل سورة"، لتتذكر هذا.
-.-
(الباب الثاني : لغة الرمز و لسان النبوات)

يقول الله " سنريهم آياتنا في الآفاق . و في أنفسهم . حتى يتبين لهم أنه الحق . أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد" .

بدأ بعالم الافاق ، و هذا سرّ كون الأمثال صور من عالم الأجسام ، لأن التشخيص معبر إلى التجريد ، فالصورة من عالم الافاق تشبه الباب الذي يوصل إلى عالم الأنفس، ثم إلى عالم الملكوت ثم إلى عالم النفس المتعالية.

و تسلسل ذكر العوالم في الآية المباركة هو بحسب الاعتبار ، لأن أول ما نراه هو الصورة ، كالشمس ، ثم نقول "ما هي الشمس بالنسبة لعالم الأنفس"فندرس صفات الشمس، فنفهم أن ثمّة شمس في أنفسنا أي تناسب صفات الشمس الأولى ، ثم إلى الحق فنعرف الشمس بالنسبة للملكوت بحسب ما يوافق طبيعة و خصائص ذاك العالم مع شهود الصفات و النسب بحسب ظهورها في كل عالم بحسبه، و هو الوحي مثلا الذي يلقيه الله إلى من يشاء على

قلبه ، كالشمس تعطي النور للقمر و الأرض، "يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده"، ثم إلى النفس المتعالية و هذا جوهر ليس هنا محل تفصيل كيفية فهم الاعتبار إليه ، حسبنا في هذا الكتاب أن نفهم أن صور الآفاق معبر إلى نور الملكوت، تذكر هذا جيداً لأنه أساس البحث كله و مفتاحه، صور الآفاق معبر إلى نور الملكوت.

و أسهل طريقة لتفهيم العامة و الخاصة هي طريقة ضرب الأمثال، "فاقصص القصص لعلهم يتفكرون" فإن قلت مثلا لرجل ليس له همّ إلا حفظ القرءان عن ظهر قلب ، ثم تنظر إلى دعوته و كلامه و أفعاله فتراها لا علاقة لها بالقرءآن، فتذهب إليه و تقول له " يا أخي العزيز لا يكن همّك الحفظ فإن الفهم أولى" قد لا يتأثر و يفهم عمق كلامك، و لكن إذا قلت له "يا أخي العزيز ، ماذا يستفيد الحمار إن حمل ألف كتاب مقدس و هو لا يفهم ما يحمل، حتى لو حمل ألا يبقى حمارا" ألا ترى أنه سيفهم و يتأثر بعمق بهذا المثل المُصوّر أكثر بكثير من الكلام المجرّد. "و لقد صرفنا للناس في هذا القرءآن من كل مثل". فالأمثال لسان النبوات، إذ كل شئ في الملكوت له مثل في الآفاق، و كل صورة في الآفاق معبر إلى نور في الملكوت، "فأينما تولّوا فثمّ وجه الله" فكل ما تراه معبر إلى الله.

و قد كان الناس قليلي القراءة و الكتابة ، و قليل منهم من يصبر على هدوء الجلوس لقراءة كتاب تجريدي و فهمه، كحال الناس اليوم ، إلا أن الجهل بالقراءة كانت أكثر بكثير، بل كانت هي الغالبة في الكثير من المجتمعات . فإذا أراد أحد العلماء أن يُعلّم الناس الدين كان لا يجد بحكم حال الناس أحسن من نحت التماثيل و الرسومات المُعبّرة، و لذلك تكثر هذه في المجتمعات التي يغلب عليها الأمّية، كالهند خاصة في الأيام الغابرة. فمثلا يُصوّرون في رسمة أن رجلا له أربعة أياد ، و أربعة رؤوس على كل رأس تاج مرصّع بالجواهر، و هذا رمز على حقيقة أن الرب على كل شئ قدير ، فالعدد أربعة يُعبّر عن الجهات الأربع، الشمال و الجنوب و الشرق و الغرب، و اليد تعبّر عن القدرة و القوة، فيصير المعنى أن الرب قادر على أن يفعل ما يشاء في أي مكان من الكون، و كل شئ تحت قوته، و الرأس يعبر عن العقل أي العلم ، فيكون المعنى أنه بكل شئ عليم ، و التاج يعبر عن الملك ، فهو مالك كل شئ ، و هكذا . فيمرّ الأمي و العالم و بلحظة واحدة فتنطبع هذه الصورة في مخيلته و تبقى في ذاكرته، ثم إذا فُسّرت له رسخ المفهوم في قلبه مع مرور الوقت، فتقع الفائدة المرجوّة. و استعمالنا لكلمة "أمي" هي من باب العرف فقط.

و الطقوس و الشعائر (أقول : الطقس ما لا يُفهم معناه ، الشعيرة ما يُفهم معناها ، فالطقوس عادة للعامة ، و الشعيرة عادة للنخبة العاقلة) ما هي إلا رسومات و لكن بالحركات . و الملابس و الأشياء التي تستعمل فهي رسمة أكثر تعقيدا و أغمق علما من التمثال الجامد البسيط. فمثلا يريد أحدهم أن يُعلّم الناس أن عالم الطبيعة هو معبر إلى عالم الروح المقدس، و أنه لن يستطيع أن يخرج من سجن الطبيعة إلا بالزهد في سيئات الأجسام، و أن عليه أن يأخذ من الدنيا الكفاف و أقلّ حد من المعيشة الكريمة و لا يبالي بالزخرفة و الغرور ، فيرسم لهم طقسا ، بأن يمرّوا أولا بحديقة مليئة بالأشجار، ثم بعد مسافة طويلة يصلون إلى جدار عال، و لا يوجد إلا وسيلة واحدة للنفاذ منه إلى الجانب الآخر، و هو فتحة لا تكفي لأكثر من جسم إنسان يلبس شيئا خفيفاً عادياً، ثم في الجانب الآخر يكون ثمة مناظر بديعة و جو هادئ و سكينة و ما شابه ذلك، فإذا قام رجل بهذا الطقس، و مرّ فيه و بذل فيه الجهد ليخففه على الطريقة المشروعة، ثم فسّر له العالم ماهية الرموز هذه كانت أرسخ في قلبه ، إذ إن الذي يسمع

قد ينسى أما الذي يعمل فيندر أن ينسى خاصة الأمور المهمة، ألا ترى إلى الشيخ يبلغ الثمانين من العمر و ما يزال يذكر حادث مهم وقع له ، كأن يكون رأى النبي مثلا، و هذه قوة الطقس بوجه عام، أي طقس حسن الرمز.

فإذاً نشأت التماثيل و الطقوس لغاية واحدة هي تعليم الناس، تعليم الناس و لاغير، و كانت بسبب انتشار الأمية ، وَ لأنها سبب لرسوخ المفهوم في قلب العامل و التأثر الحقيقي بالمفهوم و ليس مجرد أمر نظري و حسب، بل يغيْر النظرة إلى الحيوة بحسب معاني الرمز، وَ لكي تبين حقيقة تقابل عالم الأجسام مع عالم الروح، فيتعلم الإنسان كيف يفهم ما حوله من أمور و أعمال، و يصبح من أولي الأيدي و الأبصار يتفاعل مع الحيوة بكل ما فيها. و يفهم المواقف التي يمرّ فيها، فيكون في كل يوم ينمو عقله، فيؤدي ذلك إلى تكامل نفسه. و هي الغاية من الحياة هنا. "قد أفلح من تزكّى".

-.-

(الباب الثالث: بحسب الاجتهاد يكون الإمداد و لا غير)

بحسب الجهاد يكون الاستعداد ، و بحسب الاستعداد يكون الإمداد ، و هذا هو الحكم الذي يحكم كل أمور الحيوة و العلاقة مع الله و كل الشرائع و الطقوس و ما أشبه .

نضرب مثلا لنبين المقصود ; الشمس واحدة و هي تشرق بكامل ما فيها على الدوام ، فلو كان وقت الظهيرة كان إشراقها على أتم أحواله ، ثم يوجد رجل قابع في بيته ، تحت الأرض ، داخل قبر ، هل سيصل إليه نورها التام أو حتى شئ منه ، فلو جلس هذا الرجل في مكانه و قال "ما هذه الشمس الظالمة التي لا تمدّني بنورها" ألسنا نقول له "أيها الغبي المعاند. اخرج من قبرك و تعرّض الشمس يصلك نورها، هي أعطتك نورها و لكن هل قبلت أنت" ، كذلك كل عطاء من الله، إذ لو أعطى الله المجتهد و غير المجتهد على السواء لم يكن ذلك العدل الأحسن "أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون" "أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون" .

و بناء على ذلك ، من أراد أمراً يجب أن يجتهد في سبيله ، و بحسب اجتهاده ، الظاهر و الباطن ، يكون العطاء من الكريم سبحانه .

و من هنا نفهم أن أعمال الطقوس الربانية هي من باب الاجتهاد و للاستعداد لقبول الإمداد، فكل رمز تعمله هو سبب لنيل النور الذي يحويه هذا الرمز، فمثلا من طاف حول الكعبة بحضور جعل الله في قلبه حب أن يكون كتاب الله محور حياته و ما شابه ، فكل رمز سبب لتكوّن الوعاء الذي سيملأه الله بنوره و ماء الحياة من عنده.

-.-

(الباب الرابع : هل الطقس دليل على الرقي أم التدني في العلم الروحي ؟)

كلمة "كتب" تدل على الجمع و عكسها كلمة "بتك" و هي مقلوب "كتب" ، و "بتك" تدل على التفريق كقوله "ليبتكن آذان الأنعام" ، كذلك كلمة "طقس" مقابلها "سقط" فهي إذن تعني الارتفاع ، و السرّ في ذلك هو ما عرفته من كون الطقس الرباني سبب للارتفاع في العلم الروحي لأنه سبب إشراقه في حياة العامل المخلص العاقل.

و لكن يطرأ سؤال مهم و هو : إذا فهم أحد المعنى الذي يرمز إليه الطقس ، هل يغنيه ذلك عن القيام به ، و إن أغناه فهل سينال مثل ما ينال الذي قام به ؟

الجواب : أولا بما أنه بحسب الاجتهاد يكون الإمداد ، و المدد الروحي ليس مجرد فهم نظري ، و لكنه سبب لتغيير الحياة و النظر في مسائل مهمة فيها ، فلا يمكن أن يستوي في المدد من فسّر الرمز ، و من عمل به و ثم فسّره، إذ الثاني عمل و اجتهد أكثر من الأول.

فانظر كم من عاقل يستطيع أن يفهم بالنظر أن الحج هو السفر إلى الله بطي المنازل الشيطانية للظلمات الآفاقية، و الوصول إلى محور الوجود، و الوقوع في السكر بسبب ذهاب العقل في مقام عالم النفس المتعالية، الوتي المتعالي عن زوجية الخلق و العقل، حسنا ، ثم ماذا ، هل سيغيّر هذا من حياته و مشاعره كما لو أنه بذل المجهود و المحبوب في سبيل هذا السفر ، لا يستوي القاعد مع المجاهد أبدا .

ثم بما أن القيام بالرمز هو سبب لنشوء الاستعداد ، لتكون الوعاء الذي سيحل الماء فيه ، فكيف يمكن التعويض عن هذا الأمر بمجرد قرآءة الكتب و سماع الكلام، نعم لهذا الأمر تأثير و لكن قليل بالنسبة لما سيناله مَن قام بالأمر و جاهد فيه.

و بما أن غاية الطقس تثوير الحياة بإعطاء علم جديد و تجربة روحية حية شخصية، فلا يُغني عن القيام بالطقس المعين شئ غيره، و لكل نور طريق يوصل إليه ، لا يغني عن هذا الطريق شيئا مكانه .

و لكن هل معنى ذلك أنه لا يوجد من أهل الأديان و الطرق الأخرى أحد سيفهم و يشعر بما يشعر به الذين يقومون بالجمع، أليس علماء بني اسرئيل يجعلون التوراة كتاب الله محور كيانهم و حياتهم ،و هم لم يطوفوا حول الكعبة ، فكيف ذلك .

إذاً نفهم أن النور تام التجريد ، و لك دين يلبس هذا النور ثوبا يليق بأهل الطريقة و ظروفهم، هذا إن كان الدين حقا وحي من الملكوت ، و حتى الذين يتعمدون اختلاق الطقوس ستجد أن في رموزهم نورا ، يظهر بحسب صدق الواضع له و مقامه الروحي و الغاية التي وضع الطقس من أجلها.

حسناً، فنقل أننا جمعنا طقوس الطرق، و درسنا معانيها، و اكتشفنا المعاني المشتركة المجردة التي تتوجه كل هذه الطقوس إليها، هل يغنينا هذا عن القيام بطقس معين دون آخر، أليس في هذا تحيز غير عادل إلى طريقة دون أخرى طالما أننا نعلم المجرّد ورآء هذه الأثواب.

أقول : من وصل إلى هذه المرتبة لا أظن أنه بحاجة إلى طقوس أصلا حتى يسأل هذا السؤال، و لكن هذا السؤال يجرّ إلى سؤال آخر ليس هنا محل بحثه ، وهو كيف نختار دينا من بين الأديان و شؤون هذا البحث الطويلة التي

ليس هنا محل بحثها، و لكن نقول : على كل أهل طريقة أن يلزموها "و أن لو استقاموا على طريقة لأسقيناهم ماءً غدقا" و من نوى الله فإنه سيُلاقي الذي نوى لقاءه ، و الله عند حسن ظنّ عبده به .
و بحثنا هنا متعلق بالطقوس عامة و بالحج خاصة ، فلا نخرج عن الذي نوينا البحث فيه .

فمن أراد النور الذي في رموز الحج بكل تجلياتها في ظاهر حياته و باطنها ، فلن يجد أحسن من القيام به و ثم التفكر في رموزه ، و ليس برهان مثل العيان .

.

اعلم أن المعنى يسبق المبنى ، أي قبل أن يوجد طقس يجب منطقيا أن يوجد المعنى الذي يريد واضع الطقس أن يخترع له صورا، أو قل يكتشف له صور تعبّر عنه، فمثلا أنا أعمل عمل معينا، فأكتشف أن الرب على كل شئ قدير ، ثم أرسم للناس صورة رجل بأربع أياد، هذا هو السلسل بحسب منطق الناس العقلي.

يوجد سؤال مهم ، و هو لماذا لا أعلّم الناس هذا "العمل المعين" الذي عملته و جعني أفهم أن الله على كل شئ قدير، لماذا ألجأ إلى التصوير، هل لأني أذكى من الناس، أو أطهر ، أو عندي شفاعة في السماء و واسطة، أليس هذا من التكبّر "قُتل الإنسان ما أكفره. من أي شئ خلقه. من نطفة" أفليس من شكر النعمة أن أعلّم الناس كما علّمني الله، مباشرة بغير وسائط ابتكرتها بنفس ؟

الجواب الأول هو أن أكثر الناس لن تسلك الطريق الصعب الذي سلكته، و أني أشفق على الناس من صعوبة ما كابدته. فأختار لهم الطريق الأسهل . أقول ردّا على هذا : أن الطريق الأسهل هذا هو البلاء الأعظم الذي أصاب كل الطرق الروحية و الأديان، إذ يجعل الناس الرمز أصناما، و الشعيرة طقسا و عادة ، و الحياة سفاهة ، ظنّا أنهم قد أدموا "الفريضة الربانية الشرعية" و ما عليهم بعد ذلك إلا أن يهيموا على وجوههم في الأرض، و لا ثمرة في حياتهم الشخصية أقاموا ، و لا علما فهموا، فخير ما يصف حالهم قوله تعالى ألا ساء ما يزرون و يصفون و يحكمون.

الجواب الثاني هو أن الوحي المقدس هو الذي وضع الشعيرة و ليس رجل من الناس وصل ثم ضرب الأمثال ، فقول إبراهيم ، الذي ظهر الحج على يديه ، " و أرنا مناسكنا " يحتمل إما أنه فهم المجرّد فهو يدعو الله ليبين له أحسن المناسك و الرموز التي يجب و يمكن أن تُغلّف هذا الحجّ المجرّد ، و إما أنه يطلب من الملكوت أن يمدّه بمناسك ، يقوم بها ، ثم يتعلّمها ، لينال الفائدة الأتم كما ذكرنا من قبل ، و بما أن الجواب الأول واه لا يصدر إلا من متكبّر يريد أن يتفلسف على رؤوس العوام، و بما أن وحي الملكوت حق، فإذن المعنى هو أن إبراهيم دعا الرب ليعلمه مناسك هو نفسه لا يعرف المجرد الذي تحتويه، ثم بعد أن يقيمه يفهم ما فيه، و يمتلئ بالنور الذي يحويه، و لو فهمنا نحن الرمز ثم قتلناه فكيف سيفهم الذين يأتوا من بعدنا. (أقول : فهذا من إبراهيم يُظهر أنه كان أميل إلى الظواهر في هذا الطور . و مما يشهد لذلك أيضا قضية أرني كيف تحيي الموتى ، و كذلك كيفية فهمه لرؤيا قتل ابنه).

فإذن بما أن وجود الشعيرة هو الأحسن من حيث استمداد النور و تثوير الحياة ، و بما أن إبراهيم الأب الروحي للطرق المقدسة كلها، فإذن وجود الشعائر رقي إن أُقيمت كما أراد الله لها أن تقوم.

(الباب الخامس : سلبيات متعلقة بالشعائر)

لأكثر أمور الخلق إيجابيات و سلبيات ، منافع و مضار . و القرءان و العقل يقول ، ما غلب نفعه جاز أخذه ، و ما غلب ضرّه وجب تركه ، و هذا أساس الشريعة كلها ، يقول الله عن أحد المحرمات "و الإثم و البغي بغير الحق" و الإثم هو الضرر ، و هنا الإضرار بالنفس ، و البغي الإضرار بالغير ، و بما أنه قال "بغير الحق" فإذاً يلزم وجود إثم و بغي بحق، فالخمر و الميسر قال الله فيهما "و إثمهما أكبر من نفعهما" ثم فصّل ماهية الضرر الناجم عن الخمر و الميسر. فلا يوجد ترك إلا لأن الضرر رجحت كفّته على كفّه المنفع.

و في الشعائر أربعة أضرار كانت و ما زالت هي السبب الأكبر لمصائب الأرض و الناس، و هي التحجّر على الظاهر و الصور ، وَ انقسام الناس إلى طوائف و أحزاب متقاتلة ، وَ الانشغال عن بناء الحياة بسببها ، وَ علّة الكهنة و نشوء الوساطة بين الإنسان و العوالم المقدسة.

{التحجر على الظاهر و الصور} و هذه هي عبادة التماثيل التي جاء ليحطمها إبراهيم، فما أبعد هؤلاء الذين أخذوا روح إبراهيم و حوّلوها إلى أصنام.

سبب هذا التحجر قد يُنظر إليه من أكثر من وجه، وجه سياسي ، و وجه الكسالى المنافقين ، و وجه الغباء المجرّد .

أما الوجه السياسي ، فإنه قد يمرّ على الناس حكّام ظلمة ، و لا يريدون أن يعرف الناس حقيقة الحيوة و العوالم المقدسة، إذ لو عرفوا لتحرروا ، و أن تسوق البهائم خير من أن تسوق الإنسان الفاهم ، و إنما يستند فرعون على غباء قومه و خفّة عقولهم "استخف قومه فأطاعوه" و لذلك ينشرون الجمود على التماثيل.

و وجه الكسالى المنافقين ، هؤلاء هم الذين يؤمنون بالدين فقط لأن المجتمع يزعم أنه يؤمن بهذا الدين، فتراه في عمق قلبه لا يريد الدين، و لكن يخشى أن ينبذه الناس و يتفرّقوا عنه، و أن يصير مُستهجناً بين الناس، و يستند أيضا على عامل التربية من الصغر، فيرسّخ في وعيه أن هذا هو الدين، و لكنه لمّا كبر لم يرده و لم يقتنع به، فيصبح قيامه بالدين و الطقوس لمجرّد السمعة، أي إرضاء لصوت ينذره في داخله، أو خشيت ساذجة من الموت و ما بعده، فيظن أنه لو قام و قعد بضع مرّات فإن القوة الخالقة سوف ترضى عنه و أنه في الآمنين، فإذا سمع من يحثّه على التعمق و الفهم و تثوير حياته بناء على الدين الذي في الظاهر هو يقوم به، تراه مُعرضاً بل لعله يُشنّع عليه و يقول أنه زنديق أو منحرف عن العقيدة الصحيحة. لماذا ؟ لأنه كما قال عنه أصدق القائلين "و إذا قاموا إلى الصلوة قاموا كُسالى يُراءون الناس" فتعرف المنافق بكره التعمق في الدين و تثوير حياته به.

و وجه الغباء المجرد. هؤلاء هم الذين شغلهم طلب المعيشة لهم و لأهلم ، فليس لهم وقت و لا جهد ليتعمّقوا و يفهموا و يغيروا ، إذ ما إن ينام قليلا حتى يضطر إلى العمل ، فهو يراوح بين همّ " هل سأكسب " و العمل لهذا الكسب. و هذا و أمثاله في عذر، إذ المعيشة قبل المعرفة. فإذا اتبع ما أمر الله به على أنه أحسن منهج لتنظيم أيام الأسبوع و أوقات العمل و التكامل في النفس، فإن هذا مقدور للكل إن شاء الله، فإنه يسلم ، آما إذا خاض كالجهلة فجهله ذنب أقبح من عدم تعمقه، و كل ما يريده الله هو أن يسعد الإنسان، و ليس ثمّة تهديد و لا وعيد كما يفهم العوام، إنما يريد الله السعادة للناس-و لذلك بلّغ ما بلّغ، و يُلام الذين سببهوا صعوبة كسب المعاش على الناس في المقام الأول، و من هم و لماذا يصعبون ذلك ليس هنا محل التفصيل فيه، فهؤلاء الذين عصرتهم المعيشة و استنفدت قواهم يجدون في أنفسهم خشية الموت و ما بعده كذلك ، و يريدون النجاة ، فيقومون بالطقوس لمجرّد النجاة، و أسأل الرب أن يهلك أول من اخترع فكرة القيام ببضع حركات من أجل النجاة، فهذا الملعون قد أساء للبشرية كلها في كل مكان "و سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون".

التحجّر على الصور النبوية كمن يشتري علبة دواء، فيلقي الدواء في المزبلة و يأخذ العلبة و يضعها جنب رأسه و يقول "سأُشفى إن شاء الله" حسناً دعوه في أمانيه.

{انقسام الناس إلى أحزاب متناحرة} لما نسوا أن النور مجرّد و إنما الطقوس أثواب لهذا النور، أصبح العوام يُفاخر بعضهم بعضاً، كل يدعي أن ثوبه خير من ثوب صاحبه بغير وجه حق، أترى لو أتيت بجوهرة و لففتها بخرقة، و جوهرة مثلها و لففتها بقطعة حرير، أيُغيّر ذلك من الجوهرة و قيمتها، كذلك النور الذي تحويه الصور واحد و المعاني احدة في حقيقتها.

لذلك يجب على الناس أن لا ينقسموا إلى أحزاب بسبب المناسك المختلفة . أنا آكل التفاح الأخضر و أخي يأكل التفاح الأحمر، هل ألعنه و أخرجه من الحياة، المهم أننا انتفعنا و شبعنا، و يجب أن نستغني عن الطقوس إن كان لا يوجد ثمة طريقة إلى تفيهم الناس حقيقة هذه الأمور ، أيهما أولى بالترك ، تقطيع رؤوس الأنعام أم تقطيع رؤوس الناس، خُلقت العوالم للإنسان ، فيذهب كل شئ للإنسان، فكيف استتاغ الناس قتل بعضهم و كره بعضهم من أجل بقعة و حجرة. هذا هو الأمر العجيب و المحيّر بحق.

هل معنى ذلك أن يقوم كل إنسان بكل المناسك في كل الأديان ؟ أقول : نحن في غنى عن ذلك ، لأن الكمال قد بيّنه الله لنا . و هذه المناسك كانت بمثابة كتاب يقرأه من لا يعرف القراءة ، فإن عرفت كمال الإنسان في نفسه و كمال الإنسان مع غيره، فأي ضرورة للقيام بكل هذه الأمور، ثم على كل من يختار دينا أن يتبع ما اختاره ، فإن وجه الله في كل شئ.

ثم ليتذكر الناس عامة و دعاة الطرق خاصة، أنه ليس عليك أن تلعن بضاعة صاحبك و جارك لكي تروّج بضاعتك ، اعرض ما عندك فإن شاؤوا أخذوا و إن شاؤوا تركوا، و نقد وجهات النظر من صميم العلم و إنما ندين الكلام الفارغ الذي يقال عن الطرق من رجل جاهل بحقيقة الأمور، و يظن أن المسائل الروحية هي أمور سطحية و سهلة المأخذ. خذ الشئ عن أهله المتعمقين ثم ابحث في النقد كما تشاء بأدب ، و الأدب أن تؤيد قولك ببرهان.

{ الانشغال عن بناء الحيوة بسبب كثرة الطقوس و الانشغال بها } هكذا يفعل الذي استسلموا للواقع الوهمي، و يريدون أن يجبروا حسر حياتهم بأن يملأ وقته بالطقوس، و التفنن فيها و الغلو في التعصب لها، و كثير من هؤلاء تراهم دائما من أهل التحجّر ، أو من أهل الزوايا و التكايا (بالمعنى السلبي) .

إنما نزلنا إلى الحيوة الدنيا لنعمرها من كل جوانبها الحسنة . و الترقي في درجات العلم ، فلا يترك الجانب الاجتماعي من أجل المعيشة ، الموت أحلى من الحياة بجهل ، فيجب أن يفهم الناس كون المناسك أمر بسيط و جميل ، يُراد منه العلم و إثراء الحياة بالمشاعر المقدسة و الحياة الحية ، فإن خرجت عن هذه الغاية أصبحت هي و اللات و العزّى في صف واحد.

يجب أن يوجّه هذا الكلام إلى الفقهاء ، إن لم تستطيعوا أن تُعلّموا الشعيرة في ظرف عشر دقائق أو نصف ساعة للبليد الغبي فإنكم تساهمون في تحويل الشعائر إلى طقوس وثنية تُعبد من دون الله ، فكثرة التفريعات و البحث عن الافتراضات ، و تطويل أمور الظاهر الرمزي هي دليل على الخروج عن الغاية، و إنما خرج الفقهاء بهذه المطولات في أمور الطقوس البسيطة لأنهم مُنعوا من البحث في المسائل السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية و الروحية، فمن تكلّم في الأول قُتل ، و في الثاني حبس أو نفي كأبي ذر، و في الثالث تركه الناس لعدم وجود نار الوحي الحي في كلامهم، و في الرابع يُصلب أو يقتل أو ينعزل عنه الناس، فلذلك لم يجدوا أحسن من الكلام عن الحيض و ماذا تفعل إذا عطست في الصلاة، فدعونا من هذه الأمور السيئة المضرّة، و لنرجع إلى القرءآن الحقيقي، الذي يحيي روح القدس في قلوب الناس و الملكوت في عقولهم و العدل في حياتهم و الإحسان في معاملاتهم، و كل ما سوى ذلك فأن يُلقى في البحر خير له، بل يحرق حتى لا يتلوّث البحر.

و أيضا الذين يأخذون الطقوس و كأنها غاية في ذاتها يفعلون نفس الفعل . إذ يخرجونه عن غايته، فمجمل الكلام كلمة واحدة، الشعيرة بسيطة غايتها إصلاح الحياة من أحد أو كل جوانبها، و كل ما عدا ذلك وثن و لو لبس ثوب جبريل نفسه.

{علوّ الكهنة و نشوء الوساطة بين الإنسان و المعرفة} بما أن الشعيرة غالبا ما تحتاج إلى مكان معينّ لتُقام فيه، و هذا المكان يجب أن يوجد من يرعاه، و هذه الشعائر يجب أن يوجد من يعلمها للناس، كل ذلك قد يؤدي إلى نشوء الكهنة، كما وقع مع قوم نوح مثلا.

فهذا مثل قوم نوح : أئمة أموات ، و عامّة يؤمنون بهم، و كهنة المعبد و علماء الدين إن شئت هم الواسطة بين هؤلاء الأموات العظام و بين العوام الذين لا علم لهم بحقائق الأمور و هم بحاجة إلى هؤلاء الكهنة حتى يُعلّمونهم أمر الدين الذي خلّفه هؤلاء العظام، و نوح عبد صالح يدعوهم أن يصلوا إلى النور المجرد بدون واسطة الأموات، "قالوا لا تذرنّ آلهتكم".

فلا يظهر الكهنة إلا عندما يصبح أمر الدين مُعقّدا إلى درجة تمنع العوام عن فهمه، فيقولون لهم "افعلوا كذا بهذه الطريقة، بدون لماذا و لا من أجل ماذا، هكذا افعلوا ثم اذهبوا و ناموا في غُفر لكم" أما إذا ظهر أمر الدين بلغة واضحة بسيطة ، و فُصّلت الأمور بوضوح، هذا في الأساسيات طبعا، و إلا فثمة أمور في العوالم المقدسة لا يفهمها إلا من أوتي فهما من الملكوت و تعمّق ، إنما الكلام على الأساسيات، و الشعائر هذه يجب أن يقدر على استيعابها كلها أي فرد من عامة الناس في مالا يزيدون ساعة في أسوأ الأحوال مطلقاً، و لمرة واحدة في العمر و لا يحتاج أن يسأل عن الظاهر بعد ذلك ، بل يصبح كل أمره في الباطن و إصلاح الحياة.

و ليست الفقهاء قد اتعظوا بقصة بقرة بني اسرئيل ، لماذا تتنعتّوا في أمور الظاهر بعد هذه القصة، أم تريدون أن تدخلوا تحت الذين يخرّون على آيات ربهم صماً و عميانا. قال موسى كلمتين "اذبحوا بقرة" هذا ما يجب أن تكون عليه الشعائر و أمور الظاهر، كلمات معدودة بيّنة، من احتاج إلى أكثر من صفحة أو صفحتين ليصف شعيرة فليعلم أنه يرسم وثنا فهنيئا له حسن فعله.

و اعلم أن الناس كلهم من حيث الباطن إما يطلبون النفس المتعالية و العشق، و إنما يطلبون نور الملكوت و العلم، فأما النفس المتعالية فهي "هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن" فليس مكان أولى بها من مكان، و لا مكانة أولى من مكانة، و أما نور الملكوت فقوله "لا شرقية و لا غربية" و من لم يكن في جهة معينة فهو في كل جهة، و من كان في كل جهة فهو في كل مكان، فليس مكان أولى به من مكان، فإذا الهويج و النور في كل مكان على السواء، "و هو معكم أينما كنتم" إذا كون الشعيرة في مكان معين لا يعني ذلك حصر الحق فيه، و المطلوب مجرّد ، فيستوي إن طلبته في أعلى عليين أو في قهر الجحيم "فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين".

و لا شئ يفصل الإنسان عن الهوية إلى غفلته عنها، و لا عن نور الملكوت إلا عدم وجود الرغبة له في قلبه و عقله، فالذاكر الراغب قد نال كل شئ "و جعلكم ملوكا" فالوساطة في أمر الهوية العلية هي لمجرد التذكير "فذكّر إنما أنت مذكّر"، و الوساطة في أمر الملكوت هي للتحريض و الدعوة بالكلام "و حرّض المؤمنين" و أي وساطة غير هذه هي غالباً، إن لم يكن دائماً، وساطة السوء و عبادة الأحبار و الرهبان و اتخاذ الشفعاء، التذكير و التحريض هي وساطة الرسل لا غير.

فعلى كل إنسان أن يسعى للاتحاد بالعوالم المقدسة، كيف ، و بأن يظهر كمالها فيه، كل عالم و ما يعطي، و ما على الإنسان إلا الاجتهاد لقبول العطية من كل اسم من الأسماء الحسنى "استجيبوا إلى الله و الرسول إذا دعاكم لما يُحييكم".

فهذه هي سلبيات الطقوس الأربعة ، من تجنّبها كانت الشعيرة خير له و إلا فلا.

-.-

(الباب السادس : سورة الحجّ)

السورة في القرءآن عالم كامل ، يشبه نظام الكواكب ، محور حوله تدور المواضيع. فمحور السورة هو اسمها ، و مواضيعها و باقي مقاطعها تشبه الكواكب التي تدور حول الشمس، هذا بحسب أحد الاعتبارات. فإذا نظرنا إلى سورة ما ، و أردنا أن نزداد تعمّقاص في فهم اسمها ، علينا أن ندرس السورة، و نعقل الرابط بين مقاطعها و اسمها ، و هذا جهد عظيم لا محل له في هذه الصفحات المختصرة، و مع ذلك نبحث في سورة الحج المباركة و نرى ماذا يفتح الله لنا.

يظهر أن في السورة نحو اثنا عشر مقطعاً متكاملا :{الناس و الآخرة } و {الجدل في الله} و {البعث و البرهان النفسي و الآفاقي الطبيعي} و {العبادة الخالصة لله و الرد على ظنون المشركين} و {القرءآن و حقيقته} و {فرق الناس و كون الله هو الذي سيفصل بينهم يوم القيامة} و {كون كل شئ ساجد لله و الوحيد هو الإنسان في اختيار السجود طوعاً أو كوها و أنه اختار بعضهم منهم الكره} و {من عذاب أهل النار و نعيم أهل الجنة} و {الكفار الصادين عن سبيل الله ، و أن إبراهيم هو الذي أظهر الله أمر الحج} و {الإذن بالقتال للمظلومين الذين يريدون أن يبنوا مجتمعا ربانيا} و {تبيين تكذيب الأولين للمرسلين} و {الحث على السير في الأرض لطلب العلم} و {إمهال الله و حلمه بالجهلة علما أنهم سيصلون إلى أمره عاجلا أم آجلا} و {دعوة النبي للناس ، و أصناف الناس في الرد على دعوة النبي} و {أحكام و أخلاق يحث عليها الناس عامة و المؤمنين خاصة} و {من آيات الخلق و الطبيعة} و {مثل آفاقي لبيان مصدر القوة و النور في العالمين} و {اصطفاء الله لرسل الملائكة و رسل الناس} و {وصية جامعة للمؤمنين} .

سأضرب مثلا يكشف عن الرابط لكل هذه المواضيع، و ترى أنها وحدة تامة متكاملة إن شاء الله.

كان لملك أرض واسعة ، بنى نصفها ، و زيّنها بالقصور و الأشجار و الطيور و الثمار و كل ما تشتهي الأنفس و تلذّ له الأعين، و كل أهلها يحيون في سلام و حبّ.

و كان له ابن ، و أراد الملك أن يظهرعظمة ابنه المحبوب هذا ، و كان النصف الثاني من المملكة الواسعة صحراء قاحلة، عكس مملكته الأولى تماما ، فأمر ابنه أن يأخذ كتابا فيه تصميم المملكة الأولى، و الأحكام التي تجري فيها ، و الأخلاق التي في أهلها ، و قال له "اذهب أنت و زوجك إلى تلك الصحراء، و ابنها أنت و ذريّتك حتى تصبح كمملكتي هذه، و عندما تنتهي سآتي أنا و أهل مملكتي لنزورك و نسكن عندك، و و تصبح مملكتي واحدة تامة" .

و أرسل معه كتاب التصميم و أرسل معه جندي من الجنّ ، لا يراه ، و لكن يحسّ بأثره و أثار أفعاله ، و مهمة هذا الجندي الجنّي الشديد الغليظ أن يضربه بسوط كلما فكّر أن يخرج عن الغاية التي نزل من أجلها ، تذكيراً له بأصل مهمّته ، فصار عنده وسيلتان للوصول إلى الغاية، العمل طوعا بكتاب التصميم، أو كرها بالبعد عن ألم سوط العذاب من هذا الجنّي.

و بعد مرور أجيال ، بدأت الذرية تطغى على الغاية التي نزلوا من أجلها ، فاضطر ورثة كتاب التصميم إلى إخفاء الكتاب عن أعين الطواغيت حتى لا يخرّبوه فيبقى الناس في اضطرار لسوط العذاب ليعلموا متى أخطأوا ، و في كل فترة يظهر أحد الأبناء العلماء بالكتاب ليعلّم الناس ماهية المملكة الأولى و يدعوهم إلى بنائها حتى يأتي الملك

فرحا بما حققه أبناءه، و كانوا يواجهون صعوبات و يضطرون أحيانا للقتال حتى لا تفسد الغاية من الإتيان إلى الصحراء.

اعلم الآن أن هذا هو ما وقع لنا نحن الناس بنو ءادم، فالملك الأول هو الرب ، و المملكة الأولى هي الملكوت، حمل النور التام، و الصحراء هي عالم الآفاق ، محل الظلمة التامة، و نحن كنّا في الملكوت و نزلنا إلى الآفاق، و لبسنا الجسم لكي نأتي بالنور من الملكوت إلى الآفاق ، حتى يتم الإشراق ، و يصبح الملكوت و الملك كلا واحدا ، "و جمع الشمس و القمر" ، و كتاب التصميم هو كتاب الله، و العلماء هم الرسل و الأنبياء و الأئمة الأولياء.

و لذلك بدأت السورة بقوله " يأيها الناس " و ذكر الآخرة ، و هي يوم الكمال . أي يوم يصبح عالم الآفاق أكثره العلماء ، كما أنه اليوم أكثره الجهال ، ثم يزداد عدد العلماء شيئا فشيئا ، بتأثير المجتمع ، لأن الحكيم الذي يسكن وسط السفهاء سيصبح سفيها مثلهم ، كذلك السفية الذي يسكن وسط الحكماء قد يصبح حكيما مثلهم، و أولاده إن لم يكن هو نفسه، فإذا تم الأمر ، و هو أن يصبح كل المجتمع أهل عقل و جسم و عطاء عندها قد تم الأمر الذي خلق الله الخلق من أجله ، و هو توحيد الملكوت و الملك . و الناس هم كل ذكر و أنثى عاقل في العالم "يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوبا و قبائل و لتعارفوا" فأتى بالنهاية في البداية.

ثم يبدأ التدرج في التعليم ، فيبدأ في {الجدل في الله} " و الله" يعبر عن الحق ، و الخير ، و الكمال ، و الجدل في أي المجتمعات أحسن، و أي الأخلاق أحسن، و أي الأعمال أحسن، و كيفية تطوير الأمور، كل هذا هو أول أي تحسين و تطوير في العالم كله.

ثم { البعث و التدرج في البناء } فكما أن الإنسان يتدرج من النطفة، و يمرّ بمراحل كثيرة حتى يصل إلى الكمال، كذلك المجتمعات، تتدرج ،و الجاهل قد يرى النطفة و يقول ، ما هذا السوء و العبث ، و لكن لما يراه قد أصبح يوسف يقول " إن هذا إلا ملك كريم " كذلك ، من يرى المجتمع و حال الناس قبل الوصول للكمال يتهم الخالق بالسوء . و لكن لما يتم الأمر ستتغير النظرة ، كذلك في أمر الثمرة ، و خلق الإنسان و خلق الأشجار هما أحسن و أتم مثال لبيان التدرج في الوصول إلى الكمال، و أن كل شئ سيصل إلى الكمال عاجلا أم آجلاً. عاجلا إذا توجه الناس لفهم الأمر عن الله، و آجلا إذا قرروا أن يسلكوا سبيل التجربة و الفشل و الألم، فهو طريق أطول ، أي الأمرين أسهل : أن تذهب إلى طبيب بذل عمره في دراسة الطب و تأخذ منه الدواء، أو تقول "لا لن آخذ الدواء حتى أذهب و أدرس الطب و أكتشف الدواء من الصفر" كذلك الفرق بين الهداية بأمر الكتاب و الهداية بسوط العذاب، و لذلك جاء بمقطع {العبادة الخالصة لله و الرد على ظنون المشركين} .

ثم يبينّ ماهية طريق الهداية بأمر الكتاب ، فيأتي بمقطع {القرءآن و حقيقته} .

و بما أن الخالق قد أعطى حرية الاختيار للإنسان بين أمر الكتاب و سوط العذاب، و هو الإسلام طوعا أو كرهاً، جاء بمقطع {فرق الناس} و يوم القيامة ، يوم الكمال ، سيتبين للناس الوهم من الخير و السوء من الحسن ، و هذا معنى فصل الله بينهم.

ثم بينّ كون كل شئ ساجد لله ، أي كل شئ سيصل إلى أمره، و هو سوط العذاب بالنسبة للناس، فجاء بمقطع {كون كل شئ ساجد لله} .

ثم يبين الفرق بين حال من أخذوا بالرحمة و أمر الكتاب ، و الذين اختاروا الشدة و سوط العذاب، فجاء بمقطع {عذاب أهل النار و نعيم أهل الجنة}.

ثم بين الداعي إلى الملكوت و النفس المتعالية بعد ذلك، و الذين يحاربون أمثال هذه الدعوة المقدسة فجاء بمقطع {الكفار و إبراهيم} و هذا هو محور السورة.

و بما أن المتألهين إذا خنعوا لكل من تسوّل له نفسه الاعتداء على الأولياء فإن الأرض ستفسد، لغلبة الطاغوت على حكم الملكوت، فجاء بمقطع {الإذن بالقتال في سبيل الملكوت و حكمه} ليردّ على هذا الفساد بالعلاج النافع.

ثم التكذيب قد يكون بالحرب الجسمانية ، و هي ما ردّ عليه في المقطع السابق، و قد تكون حربا فكرية و هذا ما ردّ عليه في مقطع { تبيين تكذيب الأولين للمرسلين } .

ثم بين الطريق إلى تقدير ما جاء به الأنبياء و هو كون الإنسان من الذين يرغبون في معرفة حكم الله و النور التام ، فجاء بمقطع {السير في الأرض لطلب العلم } إذ بذلك ينشأ في الإنسان الاستعداد لقبول الوحي.

{إمهال الله للجهلة} هو الذي يبين للناس فيه كونه راضٍ عنهم ما داموا يطلبونه، و حتى لو لم يطلبوه واعين لذلك الطلب فإنهم سيمرّون بالمصاعب حتى يقرروا أن يطلبوه ، فالكل إليه راجع.

و {دعوة النبي} هي الرحمة لهؤلاء الراغبين في الملكوت و القدرة على دراسة كتاب الخلق مباشرة هي من أهم ما يعمله الأنبياء، حتى يرجع الناس كلهم إلى {مصدر القوة و النور في العالمين} بلا وسيط و لا شفيع.

ثم {اصطفاء الله للملائكة رسلا و من الناس} يبينّ كيف أن الرسل هم أول الدعاة و أساس العلم في الناس. ثم يختم ب{وصية جامعة للمؤمنين} بالملكوت، إذ عليهم أن يبنوا الآفاق، ثم ليفنوا في العشق المتعالي "و أن إلى ربّك المنتهى".

إذن السورة تقول; أن الخالق قدّر غاية الخلق، و هي الوصول إلى السعادة التامة به، ثم خُيّر الناس بين سلوك الطريق الموصل لها طوعا أو كرها، الرسل مظهر طريق الطوع، أمر الكتاب، و الطاغوت هو مظهر طريق الكره، سوط العذاب، و أن القرءآن جامع كل شئ في الطريق الممتع السهل العميق، و الباقي تفاصيل في هذه الأمور.

فلنختار ٧ مسائل من هذه السورة المباركة حتى يزداد البيان في ماهية الجمع إن شاء الله.

١{ ما معنى كون الناس سكارى عندما تقوم الساعة }
إن القرءان نزل ليعبّر عن قدر الخلق و الوصول إليه، و بما أن الغاية من نزول أنفسنا من الملكوت إلى عالم الآفاق المظلم هو لكي نجعل نور الملكوت يشرق في تمام الإشراق، حتى يتّحدا "و جمع الشمس و القمر" فإذن القرءان يعبّر عن هذه الحياة، و يعبّر عن أمور نستطيع فهمها و يجب العمل بها.

و لقد رمز إلى حالة الاتحاد هذه بين الملكوت و الآفاق باسم الساعة، أي ساعة التمام، و كل أسامي اليوم الآخر في القرءان الكريم هي اعتبارات مختلفة لنفس الأمر، كمن يصف بيتا من وجوهه المتعددة المختلفة.

فالساعة يوم الاتحاد بين عالم الملكوت و عالم الآفاق.

و العوالم الأربعة : العلي العظيم ، و الملكوت ، و الآفاق ، و الأنفس .
و عالم الأنفس هو من الملكوت ، فلا يعتبر في حقيقته عالما مستقلا تمام الاستقلال .
و العالم الأولى ، العلي العظيم ، الوجود اللامتناهي، لا يمكن تغييره أو التأثير فيه أو أي شئ، إلا العشق فقط .
فإذن العوالم على التحقيق ، عوالم الخلق ، هي اثنان ، عالم الملكوت ، النور التام ، و عالم الآفاق، الظلمة التامة.

و نحن ، الأنفس ، نزلنا من الملكوت إلى الآفاق لنجعل النور الأول يشرق في الثاني،
فإن كان الأولى لأهل الآفاق جلب نور الملكوت ، و هذا عملهم، فماذا يعمل أهل الملكوت ،
أن يفكروا في أنفسهم ، لا يمكن لأنها أنانية تنافي النورانية، أن يفكروا في إصلاح عالم الآفاق، لقد تم الإصلاح و تم الاتحاد و قضي الأمر، فماذا بقي، العالم الأول، النفس المتعالية.

و عالم الملكوت هو العقل، الزوجية، أما عالم النفس المتعالية فهو للقلب، الوحدة و البساطة، العشق، و لذلك "ترى الناس سكارى" لأن توجههم أصبح للنفس المتعالية، الوتر المتعالي عن زوجية الخلق، و هذه هي النهاية، نهاية الخلق التأله في العشق "و لكن عذاب الله شديد".
-.-
٢{ العبث و البعث }

الخالق يتجلى . أي يظهر شيئا فشيئا، و هذا التجلّي هو بحسب المرآة لا بحسب وجود المتجلّي، فمثلا ، المرآة التي عليها غبرة، إن وقف أمامها يوسف الكريم، هل سيظهر وجهه على المرآة، لا ، هل معنى ذلك غموض وجهه، أو بشاعته، أو عدم وجوده، لا، و لكنّ غبرة المرآة هي المانع من تجلّي يوسف، فإذا جاء الماء، و نزل من السماء، على المرآة ، و بدأ شيئا فشيئا يزيل الغبرة التي على المرآة. فسيبدأ يوسف بالظهور شيئا فشيئا، بقدر سرعة غسل الماء لوجه المرآة، و هكذا بلوغ السعادة و إتمام أمر الخلق.

فالناظر للوهلة الأولى في الخلق، الذي ما يزال في قيد التطور، قد يقول ، "ما هذه الحياة السيئة، ما هذا العبث" و لكن إذا ظهر وجه يوسف بعد تمام الغسل قال "حاشا لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم".

تأمل في خلق الإنسان، نطفة ثم علقة ، ثم مضغة مُخلّقة و غير مخلّقة، ثم العظام، ثم يكسو العظام لحما، ثم الميزة الشخصية ، ثم طفلا ، ثم شابا ، ثم يبلغ أشدّه ، ثم كهلا ثم شيخا ثم يموت ثم يحيا في الملكوت. و كذلك الشجرة ، تبدأ بذرة ، ثم تبدأ بالنمو و تضرب بجذورها في باطن الأرض، و ثم تبدأ أصولها في النمو، ثم بعد مرور وقت طويل من الرعاية، تصبح شجرة باسقة لها ثمر لذيذ عظيم و ظلّ مديد و منظر بهيج.

لو نظر الغافل إلى النطفة و إلى البذرة، أكان يتصور أن النطفة ستصبح المسيح عيسى بن مريم، و أن البذرة ستصبح شجرة طيبة مباركة، هذا هو الفرق بين من يؤمن بالعبث و من يعلم البعث، تأمل أن الحروف نفسها في الكلمتين، و الفرق في ترتيب الحروف فقط، كذلك هنا الفرق ليس في أن الناظر المؤمن بالعبث يرى أمرا غير ما يراه صاحب العبث، لا ، و إنما العابث يرى البذرة و يتوقف، يرى النطفة و يتوقف، أما المؤمن بالبعث فيتصور المسيح و هو ي النطفة. ،و الشجرة و هي في البذرة. "و الله غالب على أمره و لكن أكثر الناس لا يعلمون".

فتاريخ الناس، و كل ما مرّوا به من تجارب و ترقوا فيه من علوم، و كل المجتمعات لا محالة ستصل إلى ساعة تبلغ فيها إلى الكمال، اتحاد الملكوت بالآفاق، لا يزالوا يتطورون و يجربون حتى سيختار الناس الملكوت و يصلوا رلى ما نذكره هنا، عاجلا إن فكراو و اختاروا طوعا، و آجلا إن قرروا أن يسيروا كالعمي يساقون من وراء ظهورهم كالمجرمين، و لكن الغاية واحدة و الكل سيصل إليها، لأن الرب يريد أن يعطي السعادة و الناس تحب السعادة، و لكن نظن السعادة في أمور هي في الحقيقة شقاوة، و لا يزال الرب يربّي الناس بأفعاله، و يدخلهم في التجارب حتى يختاروا، بعد أن يعرفوا و يميزوا السعادة و الشقاوة، يختاروا طريق الله، إتمام الاتحاد بين الملكوت و الآفاق، و عقد هذا القران وَليّه الناس أجمعين، و هذا معنى أولياء الله، أي أولياء تزويج عالم الملكوت من عالم الآفاق، "و إن تتولّوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم" فأنتم أحرار، هل تريدون أن يتم هذا الزواج المقدس على أيديكم، أم تموتوا و ترجعوا إلى الملكوت أولا، ثم يجعل الله غيركم يتم على أيديهم هذا الزواج. الأمر لك أيها الكريم.

"و أن الساعة آتية لا ريب فيها" صدق الله العظيم.

-.-

٣{ما هو "البيت" ، و معنى بيت الله}

البيت هو المكان الذي يسكن فيه المرء، و أفكار الإنسان و منهج حياته هو المكان الذي يسكن فيه، إذ المنهج الذي يختاره ، أو يكتشفه العاقل أو الجاهل هو كالبيت الذي تسكن فيه الأجسام.

فبيت الله هو دين الله.

و دين الله هو الإسلام ، و الإسلام هو الإيمان بالله و اليوم الآخر و العمل الصالح، و هو ما يجب أن يكون الموحد لكل الطرق ، طرق الإيمان ، يقول الله "إن الذين ءامنوا و الذين هادوا و النصارى و الصابئين ، من ءامن بالله و اليوم الآخر و عمل صالحاً، فلهم أجرهم عند ربهم و لا خوف عليهم و لا هم يحزنون" فرطق الإيمان تختلف، أما الجوهر المشترك بينهم، و القاعدة التي يحب الله أن تقوم عليها كل هذه الطرق هي الإسلام، و بذلك يتوحد الناس في القاعدة و يختلفوا ، اختلاف تنوع و جمال في البناء و شكله، كالطعام على المائدة، يجب أن يشترك كل ما على المائدة من ألوان الطعام في كونه صحيا سليما ، أما الأنواع فيجب أن تختلف، إذ ما أسوأ المائدة التي ليس عليها إلا لون واحد من الطعام، أليس هذا سبب للغثيان، و هذا معنى التوحد في الإسلام و التنوع في الإيمان.

و "الإيمان بالله" هو استعمال العقل و رفعه إلى مقامه في الحياة، و "الإيمان باليوم الآخر" هو اليقين بأننا لسنا عبث و أننا سائرون إلى الكمال في كل نواحي الحياة، و "العمل الصالح" هو العمل على بلوغ الكمال، في مختلف مناحي الحياة. و لكل نوع من الأعمال عمل صالح بحسبه.

و بما أن الإيمان بالشئ ليس زعما باللسان، و إنما يترجم عنه العمل، "لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون" فلذلك، الإيمان بالله و اليوم الآخر مجرد زعم حتى يصدقه العمل الصالح، فإذن على التحقيق الإسلام هو العمل الصالح، و لذلك لا ترى في القرءآن أنه يقول "من ءامن بالحق عمل صالحا" أبدا ، و لكن "الذين ءامنوا و عملوا الصالحات". همذا "ءامنوا" مجردة، ءآمنوا بماذا ، لا يهم، طالما أنهم يعلمون الصالحات فلا شك أن إيمانهم صالح و حق، إذ كل إناء ينضح بما فيه، و لن تخرج الجواهر من مزبلة، أما الذين لا يخرج منهم إلا العفن ثم يزعمون أنهم أهل الحق، فهؤلاء اعلم يقينا أن عقولهم مزابل. "كل يعمل على شاكلته".

و بما أن الأصل في كل شئ جوازه، و إنما التحريم عارض، كآدم في الجنة، كل الشجر يجوز له أكله، إلا شجرة واحدة، كذلك كل الأعمال جائزة، إلا قلة، و هذه القلة هي التي يبينها الله، و يسميها "محرمات"، و قد يكون المحرم "لا تفعل" مثل "و لا تقتلوا أولادكم من إملاق". و قد يكون المحرم "افعل" كقوله "و إذا قلتم فاعدلوا".

و المحرمات سبعة عشر محرما حصرا ، ذكرها القرءآن تفصيلا ، عشرة أصلية و سبعة تتفرع عن أحد هذه العشرة. فمثلا قوله "و أوفوا الكيل و الميزان" محرم أصلي، و قوله "و حرّم الربا" فرع هذا الأصل، لأن الربا نوع من عدم العدل في المعاملة المالية.

و المحرمات العشر هي ما ذكره في سورة الأنعام ، آية ١٥١ إلى ١٥٣، التي تبدأ بقوله "قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم" و هي عشر وصايا ، لأنها تختم بقوله "ذلك وصاكم به".

فإذا دين الله هو بيته، و دينه الإسلام، و الإسلام العمل الصالح، و العمل الصالح حفظ الوصايا العشر كاملة بفروعها السبعة.

و إذا تأملت في المحرمات كلها ستجدها ترجع إلى ثلاث قواعد، الأولى "إن تصرفت في ملك الغير فعليك أن تحافظ عليه و إلا وجب عليك الضمان لما أتلفت" ، و الثانية "لا تعتدي على نفس الغير و إلا وجب عليك القصاص أو إرضاؤه أو أهله" ، و الثالثة "إن استأجرت أحدا في عمل فعليك أن تدع له أجره إلا أن يعفيك بطيب خاطر"، و هذه الثلاثة هي أساس كل شريعة الله و العدل في العوالم كلها، و عليها تقوم الحياة الطيبة لكل فرد فس نفسه و في المجتمع ككل، و على هذه الثلاثة يقوم المجتمع المقدس من حيث التعامل.

و إذا تأملت في هذه الثلاثة وجدت أنها ترجع إلى قاعدة واجدة و هي "عامل كما تحب أن تعامل" لأنه لا يوجد سليم يجب أن يخرب له أحد أملاكه، أو يعتدي على نفسه أو يسلبه حقه الذي اكتسبه بجهده، فإذا أءساس بيت الله هو "عامل كما تحبّ أن تُعامل" فمن تذكر هذه الكلمة استغنى عن ألف فقيه.

و بما أن الحج هو للبيت، إذا على كل إنسان أن يتعلم المحرمات السبعة العشر، و هذا هو الحج، و لذلك قال "و من يُعظّم حرمات الله" و مجموع هذه المحرمات هو المسجد الحرام، لأنه معبد الله الوحيد في هذا العالم، و كل ما عدا ذلك إن لم يُذكّر بهذا المعبد فهو و معبد الأوثان سواء بسواء.

"و لله على الناس حجّ البيت" كل الناس ، و لم يقل المؤمنين بمحمد عليه الصلاة و السلام، و لا المؤمنين بإبراهيم عليه السلام، كل الناس ، و من هم الناس ، يقول الله "يأيها الناس، إنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا" فالناس كل ذكر و أنثى عاقل في العالم كله، كل هؤلاء عليهم أن يتعلموا دين الله، و لذلك قال بعدها "إن أكرمكم عند الله أتقاكم" و ما هي التقوى، يقول في ختام الوصايا العشر "ذلكم وصابكم به لعلكم تتقون" فحفظ حرمات التعامل المقدس هو التقوى، فدين الله هو التقوى، و بما أن أساس الدين "عامل كما تحب أن تعامل" فإذن على كل الناس في العالم أن يحفظوا هذه الوصية الكبرى "عامل كما تحب أن تعامل" و الباقي تفصيل لهذه الوصية الكبرى، و هذا هو الحجّ.

-.-

٤{ ما سرّ كون الحجّ ظهر بإبراهيم}

إبراهيم و إسحاق و يعقوب و يوسف رموز على العوالم الأربعة .
إبراهيم العلي العظيم ، إسحاق الآفاق ، يعقوب الملكوت ، يوسف الأنفس.

و بما أن الحج هو السفر إلى الله، و اسم "الله" إما النفس المتعالية، أو الملكوت في الأصل. فاعتبار أن السفر إلى الله هو السفر إلى النفس المتعالية يوجد سر، و باعتبار أن السفر إلى الله هو إلى الملكوت فيوجد سر، و الأول هو الأصل، لأن كل شئ من النفس المتعالية، العالم الأول. "هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن"، و إليه يرجع كل شئ "إنه هو يبدئ و يعيد" و "إليه يرجع الأمر كله" فلننظر في هذا الاعتبار إن شاء الله.

تذكر أن الشئ لا يقدر أن يعرف نفسه بنفسه، و إنما يحتاج إلى غيره، فالعين مثلا لا تستطيع أن ترى نفسها، فإذا جئت بمرآة، و وضعتها أمام عينك عندها تستطيع العين أن ترى نفسها، بواسطة المرآة، كذلك لا يستطيع أحد أن

يعرف حقيقة صفته إلا إذا رأى صفته غير صفته، سواء أنه هو نفسه غير صفته الأولى أو رأى من يتخلق بهذه الصفة الثانية، فيقارن ذلك بنفسه فيعرف حقيقة صفته، فمثلا في مستشفى المجانين كلهم يرون أنفسهم عاقلين، فإذا دخل عليهم نبي مقدس قالوا "هذا مجنون"، و لو ولد رجل وسط أنبياء، كل المجتمع أنبياء، و هو أيضا نبي، لن يستطيع أن يعرف حقيقة كون الإنسان نبي و يقدر ذلك حق قدره، إلا إذا رأى الشقي، أو أن يتخلّى هو عن بنوته ، فيقارن حاله قبل التخلي و بعده، فيعرف.

فإنما يعرف الشئ نفسه بغيره، و يعرف صفته بمقارنتها مع صفة أخرى.

النفس المتعالية أرادت أن تعرف نفسها، و هي الوجود اللامتناهي اللامحدود، المطلق، هذه حقيقتها، و هي عطاء محض، و هيه صفتها. فلكي تعرف نفسها، أي ترى حقيقتها و تعرف صفتها خلقت عكسها تماما، خلقت مخلوقا محدودا متناهيا، و صفة هذا المخلوق الأخذ المحض، فلما رأت المحدود عرفت و رأت أنها غير محدودة، و لما رأت الذي لا يحبّ إلا الأخذ عرفت و رأت أنها عطاء محض، فالخلق مرآة الخالق لنفسه، فلما رأت نفسها و عشقت جمالها، عشقت كذلك سبب هذا العشق، إذ السبب إلى المحبوب محبوب، فالسبب إلى المعشوق معشوق.

إبراهيم رمز النفس المتعالية ، و بما أنه على كل الناس أن تقبل العشق المتعالي في خاتمة المطاف و نهاية السفر، و بما أن نهاية الدائرة هي في عين بدايتها، و بدايتها عين نهايتها، فبما أن العشق هو النهاية فيجب أن يصدر السبب الموصل إلى العشق من البداية، و رمز البداية هو إبراهيم ، و لذلك ظهر الحج به.

و اسم إبراهيم يشير إلى أدق تجليات العشق، إذ هو مركب من "إبرا" و "هيم" ، "إبرا" إشارة إلى الإبرة، و هي أدق الأشياء التي تخيط الثياب، و هذا رمز على الشئ الذي يجمع الأشياء. فكلما "إبرا" تشير إلى أدق الأشياء و الجامع بين الأشياء، و كلمة "هيم" من الهيام، و هو شدة الوله و العشق و السكر بالمحبوب إلى درجة الفناء فيه، فمعنى اسم إبراهيم، العاشق للجامع بين الأشياء كلها، الذي يرى معشوقته في كل شئ ، حتى الإبرة ، و يرى وجهها في كل شئ، حتى أصغر الأشياء، و يهيم بها في كل مظاهرها و تجلياتها، فتستوي عنده الإبرة و المجرة، لأن كل شئ هو عين وجه المعشوق.

و كما أن الاكتشاف يُسمّى باسم الذي اكتشفه، و يصبح رمزا عليه، كذلك المقامات الروحية و العلمية تسمى باسم الذي وصل إليها و يصبح هو رمز عليها، فاسم الشئ رمز عليه و على حقيقته، و إذا ذكر الله اسما في القرآءن كان في هذا الاسم إشارة إلى العلم الذي يدلّ عليه.

فإذن بدأ أمر الخلق من النفس المتعالية و كل شئ صائر إليها، و بين البداية و النهاية سفر، و لذلك إبراهيم رمز البداية هو الذي أظهر أمر السفر إلى النهاية ، و هو الحجّ .

-.-

٥ {ما معني كل هذا التأكيد على أهمية بهيمة الأنعام ، و البدن ، و كون الأنعام سبب للامتنان الكبير و كأنه من أساسيات الحج و رموزه}

قبل أن ننزل إلى عالم الآفاق ، كانت نفوسنا حية في عالم الملكوت ، و لما اخترنا النزول لتحقيق مهمة بناء مملكته في الآفاق تساوي مملكة الملكوت من حيث الصفات و الحقيقة، و كان الرب قد أراد لنا هذا التعظيم، التقدم على كل جنود الملكوت و نكون حملة أمانة بناء المملكة، و إتمام الاتحاد بين الملكوت و نوره و الآفاق و ظلمته، لم يكن ثمة سبيل إلى بلوغ هذه الغاية إلا إذا لبسنا الأجسام، الذي هو من عالم الآفاق.

و الأنعام و البدن هي تذكير بالأجسام و الأبدان، إذ لو ألغيت العقل و القلب من الإنسان ماذا يبقى منه، جسمه، فإذا أصبح أساس حياته مبني على أمور الجسم فقط ، و أصبح لا يرى غير ذلك، يقول الله عنه في هذه الحالة "أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون"، تأمل العين الباطن ، "إن هم إلا كالأنعام"، فإذا نظرنا إلى البهائم تذكرنا أننا إذا أسسنا حياتنا على أننا أجسام تريد أن تحيا لمجرد الحياة و تنازع البقاء، فإننا قد خرجنا عن حد الإنسان، و أصبح في حدّ البهائمية، "بل هم أضلّ سبيلا" لأنه لم تعطى البهائم ما أعطى الإنسان، فيشبه الأمر فقير يتسوّل و يسأل الناس مالا و يذل نفسه، و غني عنده كنوز عظيمة و مع ذلك يستوّل و يذلّ نفسه من أجل المال، ألا يكون الثاني أحقر و أضل سبيلا من الأول، لأن الأول لعله معذور بفقره، أما الغني الذي كفاه الله الذي بالكنوز لماذا يذلّ نفسه، فهو أذلّ من الأول حتى و هم يفعلون نفس الفعل.

و سميت الأنعام من النعمة لأن هذه الأجسام من أكبر نعم الله علينا ، لأنها سبب لرفعتنا ، و علو درجاتنا ، إذا عملنا بها كما ينبغي أن نعمل، و هو أن نعرف سبب نزولنا و نؤسس كل حياتنا على ذلك.

من تراه أعظم في الحب، رجل يسكن في نفس بيت محبوبته فهو يراها كلما أردا بدون أي جهد و صعوبة، أم رجل يسكن في بلدة ثانية بعيدة، كلما أراد أن يرى محبوبته اضطر إلى قطع المسافات، و مواجهة الوحوش، و الجوع و العطش، كل هذا لكي يراها و يصل إليها ، لا شك أنه الثاني، كذلك الفرق بين الملائكة و نحن قبل أن ننزل و نبلس الأجسام و بعد ذلك، إذ في الحالة الأولى كنا سكّان الملكوت ، فنحن نرى كل شئ كما ترى أنت الآن هذا الكتاب، أما بعد أن لبسنا الأجسام، أصبحنا بعيدين عن الملكوت، و لكي نصل إليه يجب أن نمرّ بالمجاهدات الأخلاقية و الروحية، و التأملات و الابتهالات، و ردّ الشهوات و الغفلات، "و واعدنا موسى أربعين ليلة".

و لذلك النفس المحبوسة في سجن الجسم أعظم من النفس المتحررة من حيث الحبّ و الاجتهاد ، و لذلك كانت هذه الأجسام نعمة كبرى من الله، إذ بها يظهر حبنا له، و اجتهادنا في إقامة المملكة التي يجب، فيفرح بنا و يباهي بنا كما تباهي الزوجة بعظيم صنع زوجها ، أو كما يباهي الأب بإنجاز ابنه العظيم.

فهذا سرّ أهمية الأنعام في الحج، و هو السفر إلى الملكوت ، تذكيرا بأمر النزول و ماهية هذه الحياة و أساس بناء المجتمع المقدس و شكرا لله على نعمة الجسم التي هي سبب الارتفاع في الدرجات و المقامات.

-.-

٦{ قوله "و لكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، فإلهكم إله واحد فله أسلموا" }

لا يوجد أجمع من هذه الآية المباركة في وصف ما قررناه سابقاً من كون كل الطقوس جوهرها واحد، و العبرة بمن عرف حقيقة الحياة فقط، فمن طاف حول شجرة و عرف الحياة خير من الذي يطوف حول الكعبة كالحمار حول قطب الرحى.

-.-

٧{ ما سرّ وجود سجدتين في سورة الحج، و ما سو كون أول مرة يذكر الحج هو في قوله "و أذّن في الناس بالحج" و هي الآية ٢٧}.

السجود دليل على الاقتراب "و اسجد و اقترب"، و الوصول إلى دين الله التام يمر بمرحلتين لا ثالث لهما، الأولى معرفة أن كل الخلق يسير بأحكام معينة إلى غاية معينة، فيجب أن نُسلّم بوجود هذه الأحكام، بعد استقراء و تأمل في الخلق، و نسلّم بوجود غاية السعادة التامة، بعد النظر في خلق الإنسان و لنمو الأشجار و غير ذلك، و لهذا كانت السجدة الأولى هي قوله "ألم تر أن الله يسجد له من في السموات و من في الأرض و الشمس و القمر و النجوم و الجبال و الشجر و الدواب و كثير من الناس و كثير حق عليه العذاب و من يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء".

و الثانية هي الإيمان بعالم الملكوت ، محل النور التام ، و السفر الروحي إليه و العقلي، إذ منه و به نعرف ماهية الأحكام هذه و ما هي الغاية هيه، و ما دورنا في ذلك، و كل التفاصيل الأخرى، و لذلك كانت السجدة الناس لا تقول "يأيها الناس" و إنما "يأيها الذين ءامنوا اركعوا و اسجدوا و اعبدوا ربكم و افعلوا الخير لعلكم تفلحون".

فالسجدة الأولى وصول للإسلام، و الثانية وصول للإيمان، الأولى مجملة و الثانية مفصلة، و هذا تمام القرب.

أما كون أول ما ذكر الحج في الآية ٢٧، فإن هذا متعلق بليلة القدر، إذ يقول الله "إنما أنزلناه في ليلة القدر. و ما أدراك ما ليلة القدر. ليلة القدر خير من ألف شهر". فذكرت "ليلة القدر" ثلاث مرات، و عدد حروفها ٢٧ حرفا، فافهم التفصيل.

"القدر" لا يكون إلا في عوالم الخلق الثلاثة، لأن العالم الأول ، الخالق الأول، لا قدر له، إذ القدر حد أو غاية، فهذا الجسم قدره كذا بالطول و العرض و العمق، و قدر الطالب المجتهد النجاح بامتياز، هذه غاية، أما العالم الأول فلا حد له فهو العظيم، و لا غاية له، لأنه مبدأ كل خلق و هو نفسه الغاية من الخلق، فلم يبق القدر إلا للعوالم الثلاثة ، الملكوت و الآفاق و الأنفس.

و معرفة قدر الشئ هي معرفة لصفاته و أحكامه الناتجة من صفاته المنبثقة عنها، فإذا كان الحج هو الوصول إلى الملكوت ، محل النور التام الكاشف لكل شئ، المبين لكل شئ، و المفصل لقدر كل شئ، فإذا كون الآية هي ٢٧، يدل على ذلك تماما، إذ بحقيقة الحج و إتمامها يعرف الإنسان ماهية الملكوتو قدره ، و ماهية الآفاق و قدره، و ماهية الأنفس و قدرها، و هذا هو العلم التام "أتمم لنا نورنا" فإذاً العلم التام المحيط بالعوالم الثلاثة هو حقيقة الحج.

و السجدة الثانية هي في الآية ٧٧، و سرّ ذلك أن ٧ هو الكمال ، هو السبت ، الملكوت ، و بما أن السجدة الثانية تدلّ كما عرفت على معرفة الملكوت و الوصول إليه، لغاية و هي الإتيان بنوره إلى عالم الآفاق، حتى يتساوى عالم الملكوت و عالم الآفاق تماما ، فلذلك كانت ٧٧، فالسبعة الأولى هي كمال الملكوت، و السبعة الثانية هي كمال الآفاق و تساويه مع جميع الملكوت، و هو ما تدلّ عليه الآية في السجدة الثانية و تعلم المؤمنين أن يقوموا به.

و الحمد لله على القرءآن العظيم.

-.-

(الباب السابع : ثلاثة من رموز هذا الحج الذي تعارف عليه الناس هنا و تأويلها ، الطواف حول الكعبة، و النحر ، و حلق الشعر)

{الطواف حول بيت الله}

الطواف حركة حول محور معين، و كونه سبع مرّات يدلّ على الكمال، و كون المحور بيت الله يدلّ على أن محور هذه الحركة هو الله، فالطواف حول بيت الله سبعا يعني أن تكون كل حياتك محورها الله رب العالمين، "قل إن صلاتي و نسكي و محايي و مماتي لله رب العالمين . لا شريك له" نزيد في التفصيل فافهم.

كل أعمال الناس تنشأ أولات في عقولهم، فالفكرة أولا، و هي الدافع للعمل، ثم العمل الذي هو أثر الحركة الفكرية في العقل، و الفكرة تتشكل بحسب الحاجة أو الرغبة، فلو احتاج جائع الطعام ولّد ذلك فكرة شواء الطعام من المطعم، فيؤدي ذلك إلى الحركة و هي الذهاب إلى المطعم، أو لو رغب إنسان سمين في أن يصبح صاحب جسم حسن، لأن الناس تتقزز منه أو لأنه يريد أن يكون جذاباً كأصحابه مثلا، و قوّة تلك الرغبة فكرة أو أفكار، كالاشتراك في النادي و شراء معدات الرياضة و تعلم نظام للحمية. فتنشأ الحركة التي يحتاجها لإتمام هذه الرغبة، و الحاجة ما كان من ضرويات المعيشة الأربع، الطعام و اللباس و السكن و الطب، و الرغبة كل ما عدا ذلك، فإذن حاجة و رغبة يولّدان فكرة يولّدان عملا. و أمور المعيشة الضرورية لا مدح فيها و لا ذم، و يجب وجوده و تحصيلها على الكل بديهة فلا نتكلم فيها ، و إنما الأمر كله في الرغبة، رغبات الناس هي سبب اختلاف الناس، رغبات الناس سبب اختلاف الناس، رغبات الناس سبب اختلاف الناس، اعرف هذا جيدا لأنه أساس لكثير من أمور العلم و الحياة.

و إنما يقترب الناس من بعضهم البعض لتقارب صفاتهم، فمثلا لو تقابل رجل يحب الرياضة مع آخر يحب نفس هذه الرياضة سيحصل بينهم قرب، و سيشعروا و كأنهم يعرفون بعض منذ مدّة. و ذلك بعكس لو قابل رجل يكره هذه الرياضة فسيشعر أن ثمّة نفرة في نفسه من هذا الرجل، ففي عالم الأجسام القرب يعتبر بحسب المكان أما في عالم العقول فالقرب بحسب تشابه الرغبات و الصفات، و إنما تتكوّن صفات المرء بحسب رغباته، فرجل يرغب في أن يصبح نبيا مثلا ستراه هادءا وقورا دائم التأمل قليل الطعام و ما أشبه، و رجل يرغب في أن يصبح وزيرا لطاغية ستراه كالثعلب الماكر، يكيد لمنافسيه، و ترى الكذب من عاداته الدائمة، و له مائة وجه، يصيح في العلن إذا اضطر

و لا يبالي و لا يستحي، و قد يصل الأمر إلى القتل إذا اضطر لذلك في سبيل تحقيق رغبته. و هكذا لا توجد صفة في إنسان إلا و هي من نتائج رغباته في الحياة ، فإذن أساس الحياة الرغبات.

و هذه الرغبات نفسها من أين تأتي ، و ما الذي يجعل رغبة إنسان في شئ و رغبة في شئ آخر، الجواب، ما هو محور حياتك، هذا هو الذي سيولد كل رغباتك الأساسية، محور حياتك، هم رغباتك.

و لا أبالغ إذا قلت أن الإنسان ليس مخير في شئ إلا في اختيار محور حياته، فقط لا غير، و الباقي هو مُسيّر فيه مجبور عليه، و هذا هو الفرق بين البهائم و المخلوقات كلها و بين الإنسان، لا أحد يستطيع أن يختار محور لحياته إلا الإنسان، أما الباقي فليس أمامه إلا حل واحد لا ثاني له، و هو ما خلق له ، فمحور حياة النحل صنع العسل، تبني البيوت و تسافر و تلتقي بالأزهار و تفعل كل شئ على أساس أن محور حياتها صنع العسل، و كذلك الشمس مثلا، هل تستطيع أن تقرر أن تجعل محور حياتها النكاح كالبهائم، لا ، ليس هذا في إمكانها، أما الإنسان فيستطيع أن يجعل محور حياته كأنه بهيمة أو كأنه كوكب أو اختيار إلاأن تختار محور حياتك، و الباقي متضمن في هذا المحور، و تتشكل رغباتك بحسب المحور، و من رغباتك تتشكل صفاتك، و من شابه صفاتك أحببته و من خالفها أبغضته أو كرهته و ابتعدت عنه، و بهذا يختلف الناس و ينشأ ما ينشأ بسبب ذلك.

الآن نفهم عظمة الطواف حول بيت الله، فإنه يحدد محور حياة الإنسان الحقيقي، فكما علمت أن اختيار محور الحياة هو أهم و لعله الاختيار الوحيد الحقيقي للإنسان، و لا يمكن لأحد أن لا يوجد له محور حياة، استحالة، و قد لا يعلمه و لكنه موجود، و إذا جلسنا معه قليلا و سألناه بضعة أسئلة نستطيع أن نكتشف ما هو محور حياته، و الذي لا يختار بوعي فإن مجتمعه قد فرض عليه محور ما، أو أهله و محيطه الصغير قد فرض عليه محورا ما.

و يوجد محورين لا ثالث لهما، و كل من يدبّ على هذه الأرض من البشر هو إما من أهل المحور الأول أو الثاني، لا محالة، و إن كان له حظ من هذا و حظ من هذا، فالذي يرجح في حياته يعتبر هو محورها، كالميزان، فمثلا رجل فيه كرم و فيه بخل، أيسمّى كريما أو بخيلا، إن قلنا أنه كريم ، فماذا عن البخل الذي يه، و إن قلنا أنه بخيل فقد ظلمنا إذ فيه كرم، فالحل أن ننصب ميزانا، و هذا مجرد فرض للتفهيم، ننصب ميزانا و نحسب كم مرّة كان بخيلا ، عشر مرات ، و كم مرة كان كريما ، خمسة عشر مرة، فقد رجحت كفة الكرم فيمسى كريما، كذلك الحال هنا، فما هما هذان المحوران.

الحياة الدنيا أو الحياة الآخرة .

الحياة الدين كما عرّفها الله بقوله "اعلموا أنما الحيوة الدنيا لعب و لهو و زينة و تفاخر بينكم و تكاثر في الأموال و الأولاد" و ختم بكلمة جامعة تصف حقيقة الحياة الدنيا من حيث وجودها في عقل الإنسان فقال "وما الحيوة الدنيا إلا متاع الغرور".

الحياة الآخرة هي حياة الذكر و الفكر، ذكر الله، و التأمل في نفسه و خلقه و كتابه، و بناء المجتمع المقدس، باختصار هي الذكر و الفكر، أن يكون أولى ما عند الإنسان الذكر و الفكر، من حيث العمل، و لنجملها في كلمة واحدة، هي حياة التأمل، أو الصلوة.

و إذا أمعنت النظر سترى الفروق واضحة بين الحياة الدنيا و الحياة الآخرة، الحياة الدنيا هي من أمور الجسم المجردة و الأنانية، أما الحياة الآخرة فأصلها في العقل و الروح و العطاء و بناء المجتمع الكامل، أما صاحب الحياة الدنيا فلا يبالي لا بجوع ألف طفل طالما أنه يستطيع أن يفاخر الطواغيت بأن ماله أكثر منهم، و الدنيا بهائمية في حقيقتها، أما الآخرة فملائكية عقلية، إذ صاحبها يريد الملكوت ، و العلم، يريد أن يترقى في أنواع المعارف ، و يبني المجتمع، و يتقدم ي شؤون الحياة المختلفة ، كسليمان، أما الدني فهو كفرعون، يريد أن يتكبر و يتغلب و يقهر، و كثير من الناس فراعنة و لكنهم لم يستطيعوا أن يتفرعنوا. الدنيا تريد أن تتمتع قليلا ثم لا تبالي ماذا يحدث بعد أن تذهب، أما الآخرة فتعلم أنها في فترة عمل و بناء لعالم الآفاق، و جعله يتحد مع الملكوت ، فهو يسعى لذلك، و كل حياته فرحة بذلك، حياته تعلم و تأمل، و نقد و تحسين ، يريد أن يكمل نفس نفسه و يكمل غيره، أما الدنيا فهو يريد أن يكمل هو إن استطاع و يفشل غيره حتى يظهر و يتفاخر عليهم.

فالدنيا الغلبة للأنانية، أما الآخرة العطاء لأكثر عدد من أفراد الإنسانية (مع حفظ الكيفية).

و إذا تعمقت في بحث الجذور التي تجعل الإنسان يختار الحياة الدنيا كمحور حياة أو الحياة العقلية فستجد أمرا واحدا هو الفاصل، هو الافصل الذي عليك و على كل من له نفس أن يختاره، هل تريد أن تجعل الأولوية في حياتك لذكر الله و التأمل في العلم، أم لا، هذا هو الاختيار الوحيد لكل الناس، لا يوجد اختيار غيره، سأكرر ذلك حتى تنفجر أذان الناس، إما أن تختار الذكر و الفكر كأساس لحياتك و محور لحركتك، و إما فمرحبا بحزب إبليس لا محالة، و من أراد أن يتأكد بنفسه فليتأكد و يجرّب، و لكني ذكرت الأمر لمن يريد أن يعلم و يستريح و يتقدس.

فهذا هو معنى الطواف حول بيت الله، أن تجعل محور حياتك ذكر الله و التأمل في أمره، و كل الأمور ستتولد عن هذا بلا أي عناء، هذه خلاصة خلاصة الحقيقية في هذه الحياة، و من لم يصل إلى ذلك فلا طواف له، و من جعل الذكر و الفكر محور حياته و أولى أولوياته فهو في طواف و لو كان غاطًا في نومه يحلم.

-.-

{النحر}

نحر البهائم هو قتل الحياة البهائمية و صفاتها، و استبدالها بالحياة الإنسانية الأرقى، و ذلك في ١٢ أمرا، من قام بهم في حياته ، و جعل حياته كذلك، فهؤلاء قد نحروا البهائم التي فيهم.
لا تقتل لتأكل. فإن الذين يسفكون الدماء ليتغذوا ما زالت فيهم وحشية. إلا قليلا بقدره المناسب صحيا. الاعتماد الأول على أكل المزروعات، كالخضار و الفاكهة و كل ما تنبت الأرض.

أنت ما تأكل ، فلو كان و لابد من أكل اللحم فلنأكل لحم الطيور و الأسماك، أو غيره باقتضاء و ضرورة "و لحم طير مما يشتهون".

لا ننكح المحارم كالبهائم، و لذلك أظهر لنا الله محارم النكاح.

و لا ننكح بعنف و سوء كالوحوش ، و لكن بحب و رقة و لطف "لامستم النساء".

و لا ننكح لمجرد التناسل، بل للتواصل في الأساس، فليس للبهائم مشاعر حب و قرب و روحانية كالإنسان.

و لا ننكح لمجرد السفاح، و إنما عن حب و علاقة قائمة و ميثاق الزوجية الغليظ المقدس.

و ليس لنا مواسم النكاح، و إنما كلما وجد الداعي عن قلب، إلا وقت الصيام و الحج، إذ التحكم في الشهوة من أمور الإنسانية الراقية و من أهم منازل السفر الروحي، فحرية و انضباط في آن واحد يجعلان العلاقة إنسانية راقية.

لا نعمل لمعاش الدنيا و قوتها في السبت، لأن الحيوانات تعمل كل يوم لتحيا ، فيكون السبت من أسباب تقديس الإنسان.

نحيا للتأمل في الله، نفسه و خلقه و كتابه، فالحيوانات هي التي تحيا لتعمل للمعاش و تعمل للمعاش لتحيا حتى يدركهم الموت أو يصيبهم القتل، و بئس الناس الذين يحيون ليعملوا للمعاش ليحيوا ، و هذه دائرة السوء الكبرى، التي تؤدي إلى الاكتئاب أو الجنون أو الانتحار، أما الإنسان فالله محور حياته و سبب حبه للحيوة و تنفّسه.

لا نقتل و لا نعتدي على بعضنا البعض، كما يفعل الوحوش ليبقوا أحياءً، بل نتعاون على بناء الحياة و المجتمع المقدس كما يحب ربنا أن نكون كذلك.

لا نتفرق و لا نتحزب، كما يفعل كل جنس من الحيوانات ، فالفيل مع الفيلة و الذئب مع الذئاب، بل نحفظ هذه الأمور و نعمل للكمال في أنفسنا ، و نتشاور بحسن نية لنعرف الرأى الأحسن و نعمل كإنسان واحد، و لا نتبرأ إلا من الذين هم قد اختاروا الحياة الدنيا كالبهائم إذا عاندوا و هدّدوا و اعرضوا و سببوا السوء في المجتمع.

كل واحدة من هذه الأمور هي عضو من أعضاء الحياة الدنيا البهيمية، و نحر ذلك يكون بما ذكرنا ، و هذا يعلم قدره العظيم كل من يريد أن يترقى من كونه كالأنعام إلى كونه إنسانا.

-.-

{اللحية ، و قصّ شعر الرأس}

لماذا لم يكن الواجب حلق اللحية ، ما سرّ كون الحلق متوجها إلى شعر الرأس، فإذا عرفنا معنى اللحية سنعرف معنى شعر الرأس لأنه عكسه، إذ اللحية تنمو إلى جهة القلب و شعر الرأس إلى أعلى في الأصل.

اعلم أن اللحية لم تذكر في القرءآن كله إلا مرة واحدة، منسوبة لهارون عندما قال "لا تأخذ بلحيتي و لا برأسي" و بما أنك إذا أردت أن تجرّ أحدا من وجهه فإنك ستمسك أطول ما فيه أولا ، فلو كان ذو شعر طويل و لكن لا لحية له

فإن يدك ستتوجه إلى شعر رأسه تلقائيا ، و كذلك لو كان طويل اللحية و أصلع الرأس فإنك سجرّه من لحيته أولا ، فعندما قدّم هارون ذكر اللحية على الرأس عرفنا أنه كان صاحب لحية طويلة يصلح أن يُجرّ منها ، فما معنى كون اللحية لم تنسب إلا إلى هارون، مع أن كل الأنبياء و الأولياء كانوا يرون و ما زالوا يرون أن اللحية من الأمور المهمة جدا في الدين.

فاعلم أن موسى كان من مقام الملكوت المجرد "إنني أنا الله لا إله إلا أنا" فكان في أعلى درجة ممكنة في نور الملكوت، فكان في قمة التجريد من حيث العلم، فكان يعرف الأشياء على حقيقتها الأولى من أعلى رتبة في الخلق، إذ كان كلامه مع الله ، الروح ، مباشرة ، و هو قمة اسم الله الآعلى ، و لذلك قيل فيه "إنك أنت الأعلى" و لذلك أيضا ذُكر في سورة الأعلى.

و بما أن عالم الآفاق هو الذي يضرب به الأمثال، الأمثال التي هي كالثوب الذي يحوي العلم المجرد ، و نور الملكوت، و كان موسى من أعلى درجة في الملكوت، و لن يستطيع أن يعبر للناس عن النور العظيم إلا بضرب الأمثال من الآفاق، فلذلك احتاج إلى من يؤازره من الذين قد أحاطوا بعالم الآفاق من حيث الحقيقة، و عالم الآفاق هو اسم الرحمن، و لذلك بعث الله هارون، ألا ترى أن هارون قال لبني اسرائيل "إن ربكم الرحمن" و قال الله عنه "و وهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا" فموسى رمز الملكوت، و هارون رمز على الآفاق.

و اللحية هي شعر نازل إلى جهة القلب، أى إلى الباطن، فاللحية رمز على الشعور بالباطن و معرفته و التعمق فيه. فكون هارون، رمز الآفاق، له لحية طويلة ، يدل على أنه يقول "تعمقوا في باطن عالم الآفاق هذا حتى تصلوا إلى العلم الحقيقي" و لذلك قال الله "سنريهم ءآياتنا في الآفاق و في أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد" فالعوالم الثلاثة هي في باطن عالم الآفاق، و هذا معنى اللحية، آية التعمق و التأمل و الوصول إلى العوالم الباطنية و الروحية و الإلهية.

فعكس اللحية، الباطن ، شعر الرأس ، الظاهر ، فإن كان الباطن هو الحياة الآخرة، فالظاهر هو الحياة الدنيا ، كما قال الله "يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا و هم عن الآخرة هم غافلون" فحلق شعر الرأس هو أن تمحق باطل الظواهر و تصل إلى الجواهر.

انظر في قصة موسى و العبد الصالح التي ذكرها القرءان في سورة الكهف المباركة ، ماذا فعل هذا الرجل، ركب في سفينة مساكين فخرقها ، و مرّ بغلام مسكين فقتله ، و استضاف أهل قرية و هو جائع هو و صاحبه فلم يطعموهم و لم يؤوهم عندهم، فلما رأى جدارا يريد أن ينقض ذهب و عمل لهم بلا أجر ، فأجهد نفسه أكثر من جهدها من السفر ، و مع ذلك لم يطلب أجرا .

أترى لو أردنا أن نحكم على هذا الرجل بالظاهر ماذا سيكون حكمنا ، سنقول ، حقير متكبر مفسد في الأرض مجرم سفاح عديم الإحساس و ميت القلب غبي لا عقل له، هذا حكم الظاهر ، و لكن الله يقول في هذا الذي بحسب الظاهر هو أسفل الناس في الإمكان "فوجدا عبدا من عبدانا آتيناه رحمة من عندنا و علّمناه من لدنّا علما".

فالدرس هنا هو أنه لا حكم للظاهر، لا للسطحية في النظر إلى أي شئ و التعامل معه، التعمق و التعمق الشديد هو الموصل إلى الحق و العلم النافع، و هذا معنى حلق الشعر، أن لا نرجع و نحكم بحسب الظاهر، و أن لا نكون سطحيين أغبياء في طريقة تفكيرنا و أسلوب حياتنا، بل نتعمق و نبني من الباطن إلى الظاهر، و نغوص في كل مناحي الحياة المختلفة، حتى نصل إلى جوهر كل معرفة و صفة، و نبدع فيها كأعظم ما يمكن أن نصل إليه.

فحلق الشعر هو التعمق في الحياة.

-.-

الخاتمة : "الحج عرفة".

من عرف الملكوت و فني في النفس المتعالية فقد حجّ و لو كان داخل حفرة تحت الأرض.

سبحان ربك رب العزّة عمّا يصفون . و سلام على المرسلين . و صلى الله على النبي و آله الطاهرين و الحمد لله رب العالمين.

....انتهى الكتاب و الحمد لله.